رواية «جندي السلحفاة» حين تخضع الحكومات شعوبها بالعنف

شاب حوله المجتمع القاسي إلى أحمق ينجو من الحرب بتقنية السلحفاة

تتمكن الروايات الحديثة من مقاربة أحداث عظيمة بشكل مختلف كليا عمّا تتناوله كتب التاريخ، حيث تتناول الحكايات الروائية الوقائع التاريخية الكبرى من بين أكثر جزئياتها تهميشا؛ من خلال الأفراد الذين لا مكانة لهم في التاريخ الرسمي، وبهذا تعيد الرواية إلى التاريخ إنسانيته.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

شاب أنهكه مجتمع كامل (لوحة للفنان لؤي كيالي)

أكدت الكاتبة والأكاديمية المتخصصة في الأدب المقارن، والأدب الناطق بالألمانية هبة شريف، أن رواية "جندي السلحفاة" للكاتبة السويسرية مليندا نادج أبونجي رواية بديعة، حيث تعرض طريقة استقبال مختلفة للعالم وحروبه وجيوشه من وجهة نظر شاب مختلف التفكير عن محيطه يجعلنا نعيد النظر في مفهوم الإعاقة الذهنية.

وقالت شريف إن أبونجي تحكي عن الخيال الذي يقاوم بنعومة قيود النظام الذي لا يعرف سوى الأوامر والطاعة والخضوع. وتعرض كل ذلك في لغة موسيقية ذات رنين، مستخدمة صورا تلح علينا وتوقظ أفكارا غير مألوفة وفوضوية.

رواية من منظورين

"جندي السلحفاة" التي ترجمتها شريف وصدرت أخيرا عن دار تنمية تعكس منطق العنف الذي يسكن نظام العالم، وكيف تعتمد حكومات الشعوب على العنف في سياساتها، وكيف تكرس هذا العنف عن طريق تربية الناس على الطاعة في جميع مؤسسات المجتمع بدءا من الأسرة ومرورا بالكنيسة وحتى باقي مؤسسات الدولة الإعلامية والسياسية. تقنع الحكومات شعوبها بالعنف عن طريق إيهامها بأن الحرب ضرورة لتحقيق السلام، في حين تكون هي البادئة بالحروب.

وترى هبة شريف أن الروائية السويسرية مليندا أبونجي استطاعت أن تنتقد منطق سياسة العنف من خلال تصويرها لفترة تاريخية في بلدها الأصلي يوغوسلافيا أثناء الحروب الأهلية وقبل تقسيمها. وقالت "لا تعرض الكاتبة آراءها بشكل مباشر ولا دعائي، وإنما تستخدم لغة موسيقية شاعرية تصف بها العنف الذي غلف حياة الأشخاص في تلك الفترة من تاريخ البلد الذي كان اسمه يوغوسلافيا، ومن هنا كانت المفارقة التي لا تجعل القارئ ينفر من متابعة القراءة".

وأضافت أن الرواية تسرد أحداثها من منظورين "منظور الشخصية الرئيسية الأولى، زولي، حيث تحكي مسيرة حياته التي تعرّض فيها لعنف المجتمع من جميع مؤسساته وأفراده، ثم منظور ابنة خالته هانا، التي تحاول أن تستعيد سيرة زولي، وتستعيد معها هذه الفترة من تاريخ يوغوسلافيا لتحاول أن تفهم سبب كل هذا العنف في الحروب الأهلية".

تدور الرواية حول الشاب زولتان كيرتيز، أبوه "نصف غجري" وأمه عاملة باليومية ولها عشاق يتغيّرون باستمرار. يعيش بقرية صغيرة في صربيا غير مندمج في المجتمع. في طفولته وقع من فوق الدراجة النارية التي كان يقودها أبوه بسرعة عالية. ثم ضربه الخباز ضربا شديدا فوق رأسه لأنه لم يكن ينقل جوالات الدقيق في المخبز بسرعة كافية. منذ تلك الحادثة بدأ زولتان يعاني من "رفة في رأسه"، ثم بدأ يفضل البقاء وحده في مخزن الغلال يحل الكلمات المتقاطعة. وعندما اندلعت الحرب في يوغوسلافيا في عام 1991، فكر أهله أن الحرب قد تكون فرصة لابنهما: ففي الجيش الشعبي في تسريانين يمكن أن يتحول "الأبله" و"عديم النفع" إلى جندي ثم إلى بطل.

ولكن زولتان لم يناسبه نظام الحياة العسكرية، فكان يطرح أسئلة في غير محلها، وفوق ذلك كان يتلعثم وهو يطرحها. سقط بينو صديقه الوحيد في الجيش ميتا أثناء أحد التدريبات الفارغة من المعنى والتي يقال عنها إنها تصقل الرجال، منذ تلك اللحظة رفض زولتان الخضوع لأي نظام يسمح باستغلال من هو أقوى للسلطة.

شاعرية المقاومة

خصتنا هبة شريف بمقال ترجمته للناقدة والصحافية الألمانية كريستينا مايت- تسينكه حول الروائية مليندا أبونجي وروايتها "جندي السلحفاة" التي نشرت في برلين سنة 2017 عن دار نشر زوركامب، قالت كريستينا في مقالها المعنون بـ "شاعرية المقاومة الناعمة"، "في عام 2011 مُنحت جائزة الكتاب الألمانية لأول مرة لكاتبة سويسرية هي مليندا نادج أبونجي. ولدت أبونجي في عام 1968 بمنطقة تتبع حاليا صربيا وكانت من الأقلية المجرية التي تعيش هناك. عندما بلغت الخامسة من عمرها، هاجرت مع أبويها إلى زيوريخ في سويسرا. كانت قد نالت جائزة عن روايتها "الحمام يحلق بعيدا" التي تقص فيها عن المكان الذي قضت فيه طفولتها والذي تشعر بالحنين إليه. كما تحكي أيضا مشاكل الاندماج في المجتمع السويسري التي عانت منها عائلتها. هربت عائلتها من الحرب في يوغوسلافيا إلى سويسرا، هذا البلد الاتحادي الذي يحتفظ الناس بصور شاعرية عنه وعن نظافته. خصصت أبونجي عملها الجديد "جندي السلحفاة " لتحكي عن بطل، أو بالأحرى بطل ضد، سوف يذكره تاريخ الأدب بوصفه شخصية أدبية لا تُنسى، إن لم يصبح شخصية أدبية خالدة".

وعن الرواية أضافت كريستينا "تدور أحداث هذه الرواية أيضا في المكان الذي نشأت فيه مليندا نادج أبونجي في مقاطعة فويفودينا. تعود بداية الأحداث إلى عام 1991 عندما اندلعت الحرب. زولتان كيرتيز، ويطلقون عليه زولي، أبوه نصف غجري وأمه عاملة باليومية، ولد ونشأ في الريف في ظروف فقيرة. يعتبر الناس نموه العقلي متأخرا، ولكنه في الحقيقة شخص شديد الحساسية وغير مندمج في المجتمع. إنه شخص حالم يملك موهبة الخيال ولا تناسبه بيئة القرية بفجاجتها، كما لا يناسبه بيت أهله المليء بالحزن والذي دمره إدمان الكحول والشعور بانعدام الفرص في المستقبل".

وأوضحت الناقدة "أكثر مكان يحب زولي التواجد فيه هو الحديقة، حيث يتحدث مع الأشجار والأزهار، ومع كلبه تانجو. يخترع زولي كلمات متقاطعة يفكك معها الكلمات إلى أجزاء، وهكذا يحاول أن يضفي على العالم الصعب الإدراك بالنسبة إليه شيئا من التنظيم. يرتبط زولي بصداقة رقيقة مع ابنة الخالة هانا التي هاجرت إلى سويسرا والتي نتعرف فيها على الصديقة المقربة للكاتبة. بعد أن مات زولي في شبابه تسافر هانا إلى صربيا وتحاول فهم خلفية موته المحزنة. صوت هانا هو ما يقص الرواية من وجهة نظرها ويعكس في نفس الوقت صوت بطل الحكاية الواعي تماما بإعاقته واختلافه عن الآخرين، فيحكي عن حياته في لغة شاعرية خاصة به وحده تتلامس في الكثير من الأحيان مع السوريالية".

> في روايتها تعرض الكاتبة الوجه الآخر للعنف وبنائه الداخلي، هذا العنف الذي يؤدّى عمله المدمر الشعوب والأفراد

ولفتت كريستينا إلى أن زولي بدأ يعاني من نوبات الصرع بعدما ضربه الخباز ضربا مبرحا كاد يقضي عليه، وهكذا أصبح غير صالح لأي شيء. وأبواه، لأنهما جاهلان ولا يملكان من أمرهما شيئا، أرادا أن يصنعا من ابنهما "رجلا حقيقيا"، فيرغماه على التطوع في الجيش. هناك يحاول أن ينقذ نفسه من مصير مظلم عن طريق استلهامه طريقة السلحفاة في التردد والتراجع. ولكن لأنه شخص نقي ورقيق ومغفل وأحمق، تقضي عليه الآلة العسكرية التي عذبته بما تحويه من تنمر ومهانة. بعد أن لقي صديقه الوحيد بينو مصرعه أثناء أحد التدريبات القاسية ينهار زولي تماما ويتم تسريحه من الجيش بوصفه مجنونا لا سبيل لشفائه، ويموت بعد ذلك بفترة قصيرة أثناء إحدى نوبات الصرع.

وقالت الناقدة والصحافية الألمانية كريستينا إن مليندا أبونجي "تعرض في روايتها الوجه الآخر للعنف وبنائه الداخلي، هذا العنف الذي يؤدّى عمله المدمر على جبهات الحرب، إلا أنها توضح أيضا منهاج كل الحروب، وطريقة عمل الروتين المتبلد الحس الذي يستند عليه التسلط والخنوع، الأوامر والطاعة، وتشرح كيف أن كل ذلك يمكن أن ينتج في المقابل ودون قصد عنادا ذا لغة مبتكرة وخيالا مقاوما. صحيح أن هذا الثائر الذي يحمل روح الأطفال ينتهي نهاية مأساوية، إلا أن مليندا أبونجي -الكاتبة والفنانة الموسيقية- استطاعت أن تمنحه صوتا وأن تكسبه لغة موسيقية مؤلفة خصيصا من أجله. هذه القصة المؤثرة أثرا باقيا يشهد على بلد تداعى ووطن ضاع".

مفكرون وأدباء وعلماء عرب أثروا في حضارات العالم

أحمد مروان

القاهرة – في كتابه "كتب عربية ألهمت العالم"، يقدم الباحث سامح كريم رؤيته لمجموعة من الكتب لكوكبة متميزة من العلماء والمفكرين، الذين صنعوا الحضارة العربية الإسلامية، تلك التي قامت على أساسها الحضارة الأوروبية الحديثة، وغيرها من الحضارات من خلال كتبهم، حتى أمكن القول بأنها انتشرت في أوروبا وغيرها.

يقول الباحث في مقدمته للكتاب "على هذا الأساس أريد القول إن أصحاب هذه الكتب التي صنعت الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، والتي غزت عقول العلماء والمفكرين الأجانب، قد أعطوا وبذلوا الكثير، وكان كل واحد منهم محورا من محاور هذه الحضارة العربية الإسلامية المتماسكة النبيلة، وعقلا وعلما مبدعا، ومبتكرا أثر في عقول غيره من العلماء والمفكرين".

ويكشف الباحث أن كتب علماء ومفكري رجال الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، كانت من الضخامة والشموخ إلى درجة أن البعض تصورها من قبيل الأساطير، وما هي بأساطير. وإن بدت من فرط دقتها وجديتها أساطير، فإنها في واقع الأمر كانت حقائق جرت بها أقلام أصحابها، لكن ربما تكون الحقائق أغرب من الخيال في بعض الأحيان.

ويعتبر المؤلف أن هذه الحقائق التي تضمنتها كتب الحضارة العربية الإسلامية، والتي وقف أمامها علماء ومفكرو العالم في العصور الوسطى مشدوهين، كانت من الشمول والسمو والتألق لأن أصحابها كتبوا صفحاتها بجهد واضح، وإخلاص ملموس، وأمانة منقطعة النظير ليثروا الحياة في العصور الوسطى بكل جديد ومفيد، ويسايروا الناس -وقتئذ- بتطور أفكارهم المطرد، وليجعلوا أيامهم وشهورهم وسنواتهم أحداثا جليلة لها تاريخ.

ينقسم الكتاب إلى ستة فصول، وكل فصل يتفرع إلى عدد من الموضوعات التي تشكل في مجموعها المادة الواجبة لما يعنيه هذا الفصل أو غيره من أفكار ونظريات، تم اختيارها لتجسد بدورها التأثير الذي أحدثته الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، التي انعكست بدورها على أوروبا لتصنع من بعدُ حضارتها الحديثة التي نعيشها الآن.

تضمن الفصل الأول أقساما في الأدب والنقد، فنلمح القصص والروايات إلى جانب الشعر والدراسات الخاصة به، كما نلمح في النقد جانبين يتضمنان النقد الأدبي، والآخر النقد الفكري، ويتناول الفصل الثاني الفنون بمعناها الواسع الفضفاض، كالفنون الموسيقية والأخرى الغنائية، وفنون العمارة إلى جانب فنون التشييد والبناء، ومن فنون الكتابة للمسرح إلى فنون النقش على الأقمشة، إلى فنون زخرفة الحوائط والأسقف.

> كتب علماء وأدباء ومفكري الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى كان لها تأثير كبير في أوروبا وغيرها

واشتمل الفصل الثالث على العلوم الإنسانية من فلسفة وعلم نفس، جغرافيا وتاريخ، اقتصاد وسياسة، اجتماع وعمران، بينما يتضمن الفصل الرابع العلوم الطبيعية، الطب والصيدلة، الكيمياء والفيزياء، الفلك والطبيعيات، الحرف والصناعات، الزراعات التقليدية والأخرى الطبية الخاصة بعلاج بعض الأمراض، هذا إلى جانب بعض أنواع الجراحة والدورة الدموية.

وتخصص الفصل الخامس بالحديث عن التصوف الإسلامي، وكيفية تأثيره في التصوف الأوروبي. فيما يدور الفصل السادس والأخير حول السير الذاتية لأبناء الحضارة العربية الإسلامية العظام، عبر بعض النماذج التي يتقدمها الكندي، والفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد، وابن خلدون، وغيرهم من أولئك الذين صنعوا هذه الحضارة في العصور الوسطى، وكانت وسيلتهم في ذلك الكتاب كوثيقة إنسانية، أعلنت عن وجودها داخل المكتبات، ومراكز البحث والمساجد والكنائس والجامعات والمعاهد، والبيوت والمتاحف، وغيرها من الأماكن التي اهتمت بالحفاظ على هذه الكتب العربية كوثيقة تعبر عن دور العرب في تكوين الفكر الأجنبي، وهو دور واسع المدى عميق الأثر .

الجدير بالذكر أن كتاب "كتب عربية ألهمت العالم" لمؤلفه سامح كريم، صدر مؤخرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

قصص تدخل بنا مدينة «آلجي»

ميلانو (إيطاليا) – صدرت حديثا عن منشورات المتوسط – إيطاليا، مجموعة قصصية جديدة للكاتب الجزائري صلاح باديس، بعنوان "هذه أمور تحدث"، ولعلنا منذ القصة الأولى نكتشف أبطالا يعيشون تفاصيل مدينة، تعيش هي الأخرى تحولات تبدو غير مرئية حينا، وتكشف عن أسرارها حينا آخر. مدينة عرفت الزلازل والهزات الأرضية والتاريخية والنفسية، كما لو أنها بتلك التصدعات تحكي حكاياتها المغيبة أو المنسية أو تلك التي تجر سنوات بعيدة كماض يلقي بظلاله على حاضرها، لكن لنتساءل أولا، من يحكي حكاية هذه المدينة؟ ومن يغوص عبر قصصه في تفاصيلها؟

سبق وأن تشابك صلاح باديس مع مدينته بقصائد كتابه الشعري الأول "ضجر البواخر"، ومع شوارعها وطرقاتها ومآسيها الصغيرة كما الكبيرة، ليعود اليوم، قاصا، ويخبرنا بأمور تحدث في "آلجي" (الجزائر العاصمة Alger) كما يسميها الجزائريون، وقد لا ننتبه إليها؛ يلتقطها باديس ويحولها إلى لوحات تضم مقتنيات عتيقة كسيارة بيجو 505، وقد نمرّ في طريقنا إلى البحر، بالشركة الوطنية لانتظار القطارات، في محاولة لتسجيل صوت البحر.

علاقات هشة وحب خفي، ينام ويصحو خلف العيون والجدران والكلمات. أسماء وطرقات وشوارع وأماكن بعينها، هناك أيضا مشاكل اليومي في الوظائف المملة، والبحث عن إيجار بيت بشرفة، ودوران مدوخ كدوران الثياب المتسخة في غسالة ضخمة. لكن صلاح باديس، كما أبطاله الذين يتبنون جلهم ضمير المتكلم، يخرج من تلك الدائرة بتمرير تيارات هواء تغير المتوقع، فيحيلنا على آراء ثورية وأفكار ومقولات نقدية تجعل لكل قصة ذاكرتها ومآلها الخاص.

سنلتقي في كتاب "هذه أمور تحدث" بشاب عمره يقارب ربع قرن فقط، وهو عمر الكاتب الذي لم يخف شغفه، باختراعات حياتية لم يعشْها. بل كان شفافا وحزينا كغناء البحارة، كخطى المشاة في جنازة عمر الزاهي.

> أمور تحدث في الجزائر العاصمة وقد لا ننتبه إليها، يلتقطها القاص ويحولها إلى لوحات قصصية كاشفة

"هذه أمور تحدث" مجموعة قصصية جديدة للكاتب صلاح باديس، جاءت في 144 صفحة من القطع المتوسط، ضمن سلسلة "براءات" لسنة 2019، التي تصدرها الدار وتنتصر فيها للشعر، والقصة القصيرة، والنصوص، احتفاء بهذه الأجناس الأدبية.